Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 41:3 (2006)

نقد الشعر عند ابن خلدون

محمود درابسة

يُعد عبدالرحمن ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) واحداً من أبرز المفكرين العرب في المغرب العربي في مجالات الفكر، والسياسة، والأدب، والعلوم الاجتماعية والتاريخية، فقد أصبحت موضوعاته الفكرية والاجتماعية مجالاً هاماً من مجالات البحث العلمي في جامعات العالم.

وإضافة إلى تميّزه في معارف مختلفة، فقد تميّز أيضاً في مجال النقد الأدبي على الرغم من عدم مزاولته للنقد الأدبي، إلا في جزء يسير من كتابه **المقدمة**. ولعل أبرز ما توصل إليه ابن خلدون في هذا المجال هو الربط بين نظريته الاجتماعية وما تعاينه من معارف في علوم الحضارة والأجناس البشرية وبين الأدب والبلاغة. فقد توصّل ابن خلدون إلى التأكيد بأن سبب تفوق أبناء المشرق العربي على إخوتهم أبناء المغرب العربي في مجال العلوم اللسانية هو الحضارة والعمران، فضلاً عن الأجناس البشرية المجاورة لهم مثل العجم، وهم أبناء بلاد فارس تحديداً الذين برعوا في صنوف البلاغة المختلفة، وهذا ما جعل أهل المغرب يتوجهون إلى فن البديع الذي يُعنى بالزخرفة اللفظية، في حين أن ضروب البلاغة الأخرى مثل علمي البيان والمعاني يحتاجان إلى دقة أكثر من غيرهما من صنوف البلاغة، وذلك لارتباطهما المباشر بتشكيل المعاني والصور الشعرية، وهذا ما يجعل الباحث يغوص في غموض المعاني، مما جعل الأمر صعباً على أهل المغرب العربي. يقول ابن خلدون في **مقدمته**:

"وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران. والمشرق أوفر عمراناً من المغرب كما ذكرناه، أو نقول لعناية العجم وهو معظم أهل المشرق، كتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن بل هو أصله.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقاباً وعددوا أبواباً ونوعوا أنواعاً. وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب. وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما"[1].

وقد ناقش ابن خلدون في **مقدمته** عدداً من الموضوعات والقضايا النقدية منها:

١- الملكة الإبداعية.

٢- صناعة الشعر.

٣- العلاقة بين النظم والنثر.

٤- اللفظ والمعنى.

٥- المطبوع والمصنوع.

١- الملكة الإبداعية.

لقد تناول ابن خلدون الملكة الإبداعية خاصة في مجال النظم والنثر وكذلك في مجال المعارف الأخرى، إذ لم تعد الملكة مرتبطة فقط في الإبداعات الشعرية أو الكتابة النثرية مثل الخطب والرسائل بضروبها المختلفة، وإنما تجاوز الأمر ذلك إلى ملكة الإبداع في البلاغة والفقه والعلوم المختلفة. يقول ابن خلدون: "فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملكة الكتابة بحفظ الأسجاع والترسيل، والعلمية بمخالطة العلوم والإدراكات والأبحاث والأنظار، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول، والتصوفية الربانية بالعبادات والأذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع، حتى تحصل له ملكة الرجوع إلى حسه الباطن وروحه، وينقلب ربانياً وكذا سائرها"[2].

١- ابن خلدون، عبدالرحمن: **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٧٠٨.

٢- المصدر نفسه، ص ٧٣٧.

كما بين ابن خلدون أن الإنسان لا يستطيع أن يمتلك أكثر من ملكة واحدة، بحيث تغلب هذه الملكة على غيرها من الملكات التي يحصل عليها. وإذا ما نازعت ملكة ما، الملكة الرئيسة عند الإنسان، فإنها تضعف وتتأثر الملكة الرئيسة، فالذي يكثر من حفظ الأشعار تكون لديه ملكة شعرية، وأما الذي يكثر من الاطلاع على الفقه فسوف تتشكل لديه ملكة فقهية. يقول ابن خلدون: "وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ، فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين ـ شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي، أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون، أو ابن الزيات أو البديع أو الصابئ ـ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة.. وعلى مقدار جودة المحفوظ والمسموع، تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام، ترتقي الملكة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها، وتنمو قوى الملكة بتغذيتها، وذلك أن النفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوع، فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الإدراكات..."[٣].

ويتابع ابن خلدون في موضع آخر من **مقدمته** قوله حول تميز كل مبدع في مجال محدد بعينه، حيث يقول: "وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به، وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام، ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة، وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم، ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة، لأن العبارات عن القوانين والعلوم لا حظّ لها في البلاغة، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر وكثر، وتلونت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم. وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلئ من حفظ النقي الحر من كلام العرب"[٤].

٣- المصدر نفسه، ص ٧٣٦- ٧٣٧.

٤- المصدر نفسه، ص ٧٣٧.

كما بين ابن خلدون أن الملكة تتشكل فقط من كثرة المحفوظ في لون واحد من المعرفة، وبالتالي، فقد ألغى عنصر الموهبة والفطرة عند المبدع[٥]. يقول: "ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ. فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ"[٦].

وبالتالي، فقد أكد ابن خلدون على أن الملكة لا تتحصل بالموهبة وإنما بالتعليم فقط. يقول: "لأن الملكة إنما تحصل بالتعليم كما قلناه"[٧] ولعل ما توصل إليه ابن خلدون وقرره حول إلغاء الموهبة لا يختلف عما توصل إليه ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) في كتابه **عيار الشعر** من قبل، حيث رأى ابن طباطبا أن الإبداع لا يتشكل من الموهبة أو اللاوعي، وإنما من حالة الوعي المطلق القائم على التعلّم. ومن هنا يرى ابن طباطبا أن بناء القصيدة الشعرية يقوم على الوعي لا على الموهبة والإبداع: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه"[٨].

٢- صناعة الشعر:

لقد تناول ابن خلدون مجمل العناصر التي تشكل عملية صناعة الشعر وخلقه. إذ ركز على ضرورة أن يتمكن الشاعر من تعزيز ثقافته ومحفوظه الشعري من أشعار القدماء، لأن ابن خلدون قد قرر من قبل أن الملكة هي صناعة وتعليم ولا تعتمد على الموهبة، وبالتالي فالشاعر مطالب بالإكثار من محفوظه الشعري لكي يستطيع إحكام صناعته الشعرية والإبداع فيها. يقول: "اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً، أولها: الحفظ من جنسه أي من جنس شعر

٥- عباس، إحسان: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٢م، ص٦٢٠.

٦- ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٧٣٢.

٧- المصدر نفسه، ص ٧١٥.

٨- ابن طباطبا، محمد بن طباطبا العلوي: **عيار الشعر**، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٥.

العرب، حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من الفحول الإسلاميين... ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ، فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر، وإنما هو نظم ساقط، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ"(٩).

ولما كانت الملكة هي الفكرة المسيطرة على ابن خلدون، فإنه لم يستطع أن يخرج عنها، وبالتالي فقد عرض لموضوع بواعث الشعر المرتبطة بالموهبة والغريزة عند ابن رشيق من باب الذكر فقط، وذلك بقوله: قالوا، وهذا يدل على اطلاعه على النقد عند السابقين ومخالفته لهم بموضوع الإبداع. فقال: "وقالوا: وخير الأوقات في ذلك أوقات البُكر عند الهبوب من النوم وفراغ المعدة ونشاط الفكر وفي هواء الجمام. وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء، ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب **العمدة**، وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقها، ولم يكتب أحد فيها قبله ولا بعده مثله"(١٠).

وبهذا تبين للدارس أن ابن خلدون قد اعتمد على كتاب **العمدة** مصدراً هاماً من مصادر ثقافته النقدية، بيد أنه لم يتطرق للمصادر المتعددة التي اعتمدها ابن رشيق في كتابه **العمدة**.

٩- ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٧٣١- ٧٣٢.

١٠- المصدر نفسه، ص ٧٣٢. انظر. ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م، ج ١، ص ٢٠٨. علماً بأن بواعث الشعر التي أشار إليها ابن خلدون بأنها من كتاب **العمدة** هي في الأصل كما أشار صاحب **العمدة** نفسه مأخوذة من ابن قتيبة في كتابه **الشعر والشعراء**. قال ابن رشيق: "قال ابن قتيبة: وللشاعر أوقات يسرع فيها أتيه، ويسمح فيها أبيه: منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير. **العمدة**، ج ١، ص ٢٠٨. وانظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم: **الشعر والشعراء**، تحقيق دي جوييه، ليدن ١٩٠٤م، ص ١٩. حيث يقول ابن قتيبة: "وللشعر أوقات يسرع فيها أتيه ويسمح فيها أبيه منها أول الليل قبل تغشي الكرى ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير".

إضافة إلى ذلك، فقد أفاد ابن خلدون في تشكيل ثقافته النقدية من مصادر أخرى، ولكن من خلال كتاب **العمدة**، حيث أفاد من الجاحظ وابن قتيبه، وابن طباطبا، وقدامة بن جعفر، ولاحقاً من حازم القرطاجي (ت٦٨٤هـ).

ولعل الإضافة الجديدة في إطار كلامه عن الشعر وصناعته تكمن في تعريفه للشعر، الذي تجاوز فيه حدود الوزن الذي يفصل بين الشعر والنثر. يقول: "الشعر: هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده. الجاري على أساليب العرب المخصوصة به"(١١).

فقد قدم ابن خلدون في تعريفه للشعر تصوراً لا يخرج عما قيد به نفسه من اعتماد الملكة أساساً في الإبداع الشعري والنثري بل وفي مجالات العلوم والمعارف المختلفة. إذ عد الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارات والأوصاف. بيد أنه أشار إلى أن هذه الأوصاف والاستعارات ينبغي أن لا تخرج الشعر عن الوضوح وسهولة المعاني. يقول "فإن كانت المعاني كثيرة كان حشواً، واشتغل الذهن بالغوص عليها، فمنع الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة. ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن"(١٢) ولهذا فقد رأى ابن خلدون ضرورة أن يسير الشعر على أساليب العرب من حيث الوضوح. ولذا فقد عاب ابن خلدون شعر المتنبخ وأبي العلاء لخروجهما عن أساليب العرب، حيث يعتمد شعر المتنبخ على الغموض، بينما يقوم شعر أبي العلاء على الغموض الفني، والنزعة الفلسفية.

كما أضاف ابن خلدون في تعريفه للشعر أيضاً: أن صناعة القصيدة تقوم على أقسام أو أغراض منفصلة لا ترابط بينها، ولعل هذا لا يخرج عن فهمه للشعر وصناعته التي تقوم على الوعي والمحفوظ والتقليد: يقول: "إذ هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة، وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً... وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه، حتى كأنه كلام وحده، مستقل عما قبله وما بعده"(١٣)، ثم يتابع قوله

١١- ابن خلدون: **المقدمة**، ص ٧٣١.

١٢- المصدر نفسه، ص ٧٣٣.

١٣- المصدر نفسه، ص ٧٢٧.

بهذا الخصوص، فيقول: "والشعر من بين فنون الكلام، صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين، لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده، ويصلح أن ينفرد دون ما سواه"(١٤).

ويبدو للدارس هنا أن ابن خلدون قد تأثر بمفهوم ابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) بخصوص بناء القصيدة، حيث رأى ابن خلدون القصيدة مشكلة من أبيات منفصلة، ومن قطع متساوية منفردة، فيقول: "فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك"(١٥).

وهذا الكلام يتماثل تماما مع كلام ابن طباطبا حول بناء القصيدة التي رآها قطعاً منفصلة يربطها الوزن فقط فيقول ابن طباطبا: "فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثراً، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله"(١٦).

وفي ضوء ذلك، فقد قدم ابن خلدون موضوعات مختلفة حول الشعر، معتمداً كتاب **العمدة** الذي بدوره كان كتاباً تعليمياً إلى حد كبير، حيث جمع آراء من سبقوه في النقد، وبالتالي فقد شكل هذا الكتاب وما فيه من آراء النقاد السابقين مصدراً لابن خلدون في ثقافته النقدية حيث يقول: "وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب **العمدة** لابن رشيق"(١٧).

وبالتالي، فإن ابن خلدون كما يبدو لم يطلع على كتاب **عيار الشعر** لابن طباطبا حول بناء القصيدة أو حتى على كتاب **الشعر والشعراء** لابن قتيبة بخصوص بواعث الشعر، مما يعني

١٤- المصدر نفسه، ص ٧٢٧.

١٥- المصدر نفسه، ص ٧٢٧.

١٦- ابن طباطبا: **عيار الشعر**، ص ٥.

١٧- ابن خلدون: **المقدمة**، ص ٧٣٣.

أن الآراء المختلفة في النقد المتمثلة في كتاب ابن رشيق قد شكلت ثقافة ابن خلدون النقدية، فضلاً عما سمعه من شيوخه في هذا المجال.

٣- العلاقة بين النظم والنثر:

لقد بيّن ابن خلدون أن الفرق بين الشعر المنظوم والنثر هو الوزن بالدرجة الأولى، فضلاً عن خصائص أخرى تفصل بين الشعر المنظوم والنثر، وبالتالي فإن الكلام عند ابن خلدون ينقسم بين شعر ونثر، وأما القرآن الكريم فيخرج عنهما، فهو الكلام المنزّل من عند الله، المتفرد بأسلوبه وبنائه. يقول ابن خلدون: "اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية. وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام.

أما الشعر، فمنه المدح والهجاء والرثاء، وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم فيه في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً، ومنه المرسل، وهو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء، بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية، ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم.

وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً، بل هو مفصل آيات تنتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها"[١٨].

ولذا فقد فصل ابن خلدون هنا بين النظم والنثر فصلاً تاماً، محدداً أغراض كل فن منهما، فضلاً عن تقسيمه للكلام العربي مبيناً، أن القرآن صنف آخر من الكلام المنزّل. ولعل تحديد ابن خلدون للعلاقة بين النظم والنثر وفصله بينهما من خلال الوزن لا يخرج عما جاء عند قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) الذي عرّف الشعر بأنه كلام موزون مقفى[١٩]، في حين لم يختلف ابن خلدون عن النقاد العرب السابقين في تقسيمه للكلام العربي إلى نظم ونثر، وهو ما جاء عند ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) الذي جاء ذكره عند ابن خلدون تحديداً، حيث قسم الكلام إلى

١٨- المصدر نفسه، ص ٧٢٤.

١٩- قدامة بن جعفر، أبو الفرج: **نقد الشعر**، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٦٤.

قسمين: منظوم ومنثور[٢٠] كما بيّن ابن خلدون أن للشعر أسلوبه الخاص به، وكذلك للنثر أسلوبه الخاص به أيضاً، وقد يتداخل أسلوب النثر مع الشعر، ولكنه غير مستحب بل يعد مذموماً، وأن الأديب الذي يلجأ إلى هذا الأسلوب يكون قد تأثر بأسلوب العجم. يقول: "واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون الشعرية أساليب تختص به عند أهله. ولا تصلح لفن الآخر، ولا تستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، وأمثال ذلك. وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر ومنازعه في المنثور من كثرة الأسجاع، والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية"[٢١] ثم يتابع قوله حول ذم تداخل أسلوب النثر مع الشعر، فيقول: "وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم"[٢٢].

وقد ربط ابن خلدون اختصاص الأديب أو العالم بفن أو علم واحد دون غيره بالملكة التي يحصل عليها الأديب أو العالم أولاً، وبالتالي، فلا يستطيع الشاعر أن يبدع في فني المنظوم والمنثور معاً. يقول: "والسبب في ذلك أنه كما بيّناه ملكة في اللسان، فإذا سبقت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة، لأن قبول الملكات وحصولها للطباع التي على الفطرة أسهل وأيسر"[٢٣]. ثم يؤكد مقولته في موضع آخر، حيث يقول: "وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدحم، وأن من سبقت له جادة في صناعة، فقل أن يجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية"[٢٤].

٢٠- ابن رشيق القيرواني: **العمدة**، ج ١، ص ١٩.

٢١- ابن خلدون: **المقدمة**، ص ٧٢٤.

٢٢- المصدر نفسه، ص ٧٢٥.

٢٣- المصدر نفسه، ص ٧٢٦.

٢٤- المصدر نفسه، ص ٧٢٦.

ولعل ما توصّل إليه ابن خلدون لا يختلف في مضمونه عما جاء عند ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) من قبل في كتابه **الشعر والشعراء** حول قدرة الإنسان على الإبداع والتميز في فن واحد دون غيره، حيث رفض ابن قتيبة أشعار العلماء، لأنهم تميّزوا في علوم أخرى غير الشعر، فيقول: "وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاد عن السماح وسهولة، كشعر الأصمعي وشعر ابن المقفع وشعر الخليل"(٢٥).

٤- اللفظ والمعنى:

أعاد ابن خلدون تناول ما قد طرحه النقاد السابقون من قبل، وهي قضية اللفظ والمعنى أو ما يسمى بالنقد المعاصر "الشكل والمضمون"، بيد أن ابن خلدون قد توقف عند هذه القضية منتصراً للفظ على حساب المعنى، علماً بأن هذه القضية قد حسم أمرها عند عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في نظرية النظم. وأما ابن خلدون فقد انحاز إلى اللفظ وعدّ المعاني تابعة للألفاظ. يقول: "اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تبع لها وهي أصل"(٢٦).

كما عاد ابن خلدون إلى بدايات هذه القضية عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) الذي جعل المعاني مطروحة في الطريق. حيث يقول الجاحظ: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي، والعربي، والبدوي والقروي، والمدني. وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السَّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"(٢٧).

بيد أن الجاحظ قد قصد بالمعاني المطروحة الأغراض والموضوعات ولم يشأ أن يستهين بأمر المعاني تحديداً، ولذا فإن ابن خلدون قد فضل الألفاظ على المعاني بشكل لا يقبل التأويل، إذ رأى المعاني تمثل الماء بينما الألفاظ تشبه الأواني التي تختلف فيما بينها جودة وشكلاً. يقول:

٢٥- ابن قتيبة: **الشعر والشعراء**، ص ١٠-١١.

٢٦- ابن خلدون: **المقدمة**، ص ٧٣٦.

٢٧- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **الحيوان**، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م، ج ٣، ص ١٣١- ١٣٢.

"فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى تكلف صناعة في تأليفها. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه، وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء"(٢٨).

ولذا، فإن ابن خلدون لم يقدم جديداً في هذه الإشكالية الفنية، وإنما أعادها إلى بدايات طرحها في النقد العربي، وكأنه لم يسمع بجهود عبدالقاهر الجرجاني في **دلائل الإعجاز** الذي حسم المسألة هذه من خلال نظرية النظم التي قضت على ثنائية اللفظ والمعنى. يقول الجرجاني بهذا الخصوص: "أتتصور أن تكون معتبراً مفكراً في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله وأن تقول هذه اللفظة إنما صلحت ههنا لكونها على صفة كذا؟ أم لا يعقل إلا أن تقول: صلحت ههنا لأن معناها كذا، ولا لأنها على كذا، ولأن معنى الكلام والغرض فيه يوجب كذا، ولأن معنى ما قبلها يقتضي معناها. فإن تصورت الأول فقل ما شئت واعلم أن كل ما ذكرناه باطل، وإن لم تتصور إلا الثاني فلا تخدعن نفسك بالأضاليل، ودع النظر ظواهر الأمور، واعلم أن ما ترى أنه لا بد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكراً في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافاً وأحوالاً إذا عرفتها عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا"(٢٩).

٢٨- ابن خلدون: **المقدمة**، ص ٧٣٦.

٢٩- الجرجاني، عبدالقاهر: **دلائل الإعجاز**، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨١م، ص٤٢- ٤٣.

٥- المطبوع والمصنوع:

تناول ابن خلدون في القسم الأخير من كتابه **المقدمة** موضوعات وقضايا نقدية مختلفة، حيث تناول قضايا نقدية لم تعد متداولة منذ زمن طويل، فالمطبوع والمصنوع من القضايا النقدية التي لم يعد يبحث النقاد فيها. فقد ساق ابن خلدون رأياً غريباً بهذا الخصوص، إذ رأى أن المطبوع مستحب أكثر من المصنوع. يقول: "وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف، قاصر عن الكلام المطبوع"(٣٠).

وقد فهم ابن خلدون أن المصنوع لا يعدو أكثر من زينة شكلية، وأن الإكثار منه يقلل من قيمة الشعر. يقول: "إن من أشهى ما تقترحه على نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه أو نثره، وقد عوقب بأشد العقوبة، ونودي عليه. يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفون بها، ويتناسون البلاغة. ثم من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها، وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه. والإكثار منها عيب، قال ابن رشيق وغيره"(٣١).

فالكلام الذي يناصره ابن خلدون هو الكلام المطبوع الذي يطلقه صاحبه على طبيعته وسجيته، دون تنميق أو سجع وهذا ما يعطي لذة لدى السامع(٣٢). ولا يدري المرء هنا كيف أجاز ابن خلدون لنفسه الانتصار للطبع بهذه الطريقة، منكراً على المبدع ما يقوم به من تغييرات ضرورية على العمل الإبداعي بعد ولادته؟ فالطبع مرحلة أولية لدى الشاعر ثم تليها إجراءات فنية تزيد العمل الفني قيمة وقوة.

ولعل ابن خلدون قد أخذ مقولته حول أهمية المطبوع من ابن رشيق القيرواني كما أشار من قبل، ولذا يقول ابن رشيق بهذا الخصوص: "ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً، وعليه المدار"(٣٣).

* * * *

٣٠- ابن خلدون: **المقدمة**، ص ٧٤٢- ٧٤٣.

٣١- المصدر نفسه، ص ٧٤٢.

٣٢- المصدر نفسه، ص ٧٤٠.

٣٣- ابن رشيق: **العمدة**، ج ١، ص ١٢٩.